دلالات الوهج الفني عند الشاعر الدكتور حسن جاد (ولدي أنموذجا)

إعداد دكتور
أبو المعاطى عرفة عبد اللطيف

مقدمة :

الحمد لله العلي الكبير والصلاة والسلام على البشير النذير وعلى آله وصحبه والتابعين وبعد ،،،،،

فلا تزال كلمات الفقد وعبارات الوداع تؤرق النفوس البشرية التي فطرت على حب التملك وحب الاستبقاء ، فتحرك فيها نوعاً من المشاعر دفيناً ، كما تستخرج منها إحساساً صادقاً أميناً ــ ولعل أشق كلمات الفقد قسوة على النفس البشرية حين تغتال أيدى المنية روح فلذة الكبد ومنية الروح وهو الابن ، لا سيما إذا كان في طور شبابه وترعرع صباه .

فمن هنا يشعر الانسان بالوحدة القاتلة والأحاسيس المهلكة التي تظل تستظهر صفحاتها على مخيلته بين الحين والآخر فلا يجد لنفسه فكاكاً منها أو هروباً .

ومما يؤجج حرارة هذه الحالة الشعورية أن يكون المفقود وحيداً لا يعوضه تتابع الأيام ، ولا كر الدهور ولا إخلاص المعزين .

ومن هذه التجارب المؤلمة التي يعاني منها صاحبها معاناة لا يقاسمه فيها أحد ما ألم بالدكتور / حسن جاد حين فقد ولده ووحيده محمداً الذي أعده زخراً لمستقبل أيامه ، وعدة لهرمه وشيخوخته ، فقد فقد بفقده جمال الحياة وبهاءها كما أحال حلوها عند مراً ، وعكر عليه صفو حياته وصفاءها فراح يرثيه

بأجود ما تجود به قرائح الشعراء وتفيض به مكنونات الشعور ، وزاد الأمر عليه قسوة ما يجده من نفسه من قوة الاحساس وصدق الشعور وما أقسى نزول الحوادث والملمات حين تصادف حساً مرهفاً وشعوراً صادقاً وتعبيراً آسراً وهو ما يتمتع به شاعرنا المصاب بفقد ولده الوحيد فلم يملك وهو في هذه الحالة إلا أن يرثيه بأصدق ما يرثي والد ولده ومحب حبيبه ، وهو ما تجلى في طول نفسه في التعبير عن مصابه الأليم ، وقد حرك فينا الاحساس بألمه ، وجعلنا نتوجع بما ألم به ، مشاركة فعالة فيما تأتي به الأقدار على غير ما تستهويه النفوس .

وقد انتظم عقد هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد يعقبهما فصلين ثم خاتمة :

ففي المقدمة أبرزت قيمة هذا الموضوع والدافع إليه والتخطيط الذي احتواه .

وفي التمهيد كشفت عن حياة الشاعر الدكتور حسن جاد ومعالم تكوينه (الحياتي ، العلمي) .

وفي الفصل الأول أبرزت معالم التجربة الإبداعية في النص من خلال :

- النظر في قيمة القصيدة ومناسبتها والداعي إلى البوح بها .

- **الرؤية التحليلية المتأنية للأفكار في النص وأبرزت من خلال ذلك كيف جاء النص صورة صادقة لخواطر الشاعر ومشاعره وأحاسيسه وآلامه وأحزانه وأشجانه .**

ثم جاء الفصل الثاني :

مركزا الضوء على ما يمتلكه النص من عافية الرؤية الفنية الواضحة من خلال:

- **التشكيل اللغوي**
- **الصور والأخيلة .**
- **الأفكار والمعاني .**
- **الموسيقى الشعرية .**

ثم أعقبت ذلك بخاتمة أبرزت من خلالها أهم النقاط التي يمكن الخروج بها من هذه الدراسة التي عَكَفت وعَاَشت مع نص لشاعر صاحب رؤية شعرية أخاذة وعبقرية صنعها الحرمان ونسيها الخلان متبعاً ذلك بثبت لهوامش الدراسة .

وفي النهاية أؤكد على أنه قد كان نبل القصد غايتي قبلاً وبعداً فالتقصير والعي من عندي والتوفيق من الله

الباحث

تمهيد

(أضواء على حياة " حسن جاد " ومعالم تكوينه)

حسن جاد شاعر ملء السمع والبصر قد أنتج يراعاه المبين شعراً قوياً جزلاً انطلق فيه كالنهر الهادر الفياض ولا يزال هذا العبق الشعري – فيما أعلم – أنه ما زال مخطوطاً رغم ولوجه (شتى شئون الفن والفكر والاجتماع والوطنية والدين وإجادته فيما يتناول من أساليب وأخيلة ومعان وأغراض إجادةً نادرة)[١]

وبدأً أقول لقد تخلقت هذه الموهبة في ريف مصر العظيم المترع بشعرائه الأفذاذ حيث كانت قرية منشأة الجمال مركز دكرنس بالدقهلية موطن هذا الشاعر الذى ولد في ١٩١٤/١/١٣م وقد توالت عليه عدة أمور أثقلت كاهلة حيث وفاة والده وهو في سن الخامسة من عمره فتكفلت أمه بتربيته وأدخلته كتاب القرية فحفظ القرآن الكريم والتحق بمعهد دمياط الديني في ١٩٢٦م ثم التحق بعد ذلك بمعهد الزقازيق في عام ١٩٣٠ وقد زامله فيه فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، والدكتور محمد العلائي ، والشيخ أحمد الشرباصي والدكتور / محمد الطيب النجار .

ثم ما لبث أن التحق بعد ذلك عام ١٩٣٥م بكلية اللغة العربية بالقاهرة التي تخرج فيها ١٩٣٩م حاصلاً على درجة الإجازة العالية وكان ترتيبه الثاني ونال جائزة الملك فؤاد وكان يتردد على الندوات مع الشعراء سيد قطب ، محمود حسن إسماعيل – وطاهر أبو فاشا ، أحمد مخيمر ، والعوضي الوكيل ، وأحمد الزين ، ومحمد الأسمر ... وغيرهم كل ذلك قد أهله للحصول على درجة العالمية الدكتوراه في البلاغة والأدب عام ١٩٤٦م بعدها عمل مدرساً في كلية اللغة العربية بالقاهرة وتدرج حتى وصل عميداً لها في ١٩٧٨م ولاهتمامه

---

(١) مذاهب الأدب ص١٩٢ د/ محمد عبد المنعم خفاجي رابطة الأدب الحديث القاهرة ط١ ١٩٥٣م .

بالشعر وتحليقه في عالمه اُختير عضواً بلجنة الشعر في المجلس الأعلى للفنون والآداب ١٩٧٦م ثم أهلته هذه الموهبة المصورة صاحبة الإحساس المتوقد والشعور المرهف والخيال المجنح لأن يختار عميداً للأدب العربي في مهرجان شعري عام ١٩٧٨م لكنه رفض هذا مدعياً بأنه ليس أهلاً لها ، وقد أحدث ذلك ضجة كبرى في الصحافة ومنح وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى في عام ١٤٠١هـ الموافق ١٩٨١/٣/٣٠م .

إن شخصية الشاعر الدكتور / حسن جاد على حد قول أستاذنا الدكتور / صابر عبد الدايم شخصية عبقرية صنعها الحرمان ونسيها الخلان ولعل السر في تفوقه وبراعته يكمن في الفاقة التي كانت تحيق به وقد أرهق معه أمه حيث لامس مراره الفقر لأبيه وافتقد حنان الأب ورعايته ، كما افتقد رعاية الكبار من أخوته لأبيه كل هذه المنعطفات أزعم أنها قد شكلت عوالم نفسه وصهرته فالفقر يلهب فيلهم ومن أروع ما أنتج شاعرنا من مؤلفات :

- الأدب العربي بين الجاهلية والاسلام .
- الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين .
- ابن زيدون عصره ، حياته ، أدبه .
- الأدب العربي في المهجر .

- **دراسات في النقد العربي القديم .**
- **على هامش النقد الأدبي الحديث .**
- **الأدب المقارن .**
- **ميزان الشاعر في العروض والقوافي .**
- **مناهج البحث الأدبي .**

إضافة إلى ديوان شعر حسن جاد المخطوط والذي ينتظر من يتولى نشره للناس حتى يضوع عبقه وينتشر عبيره ، وحتى يعود صوته الشعري إلى الحياة الأدبية من جديد يعلن منظوره ورؤيته للعالم من خلال تصوره للشعر والشعراء .

وفي عام ١٩٧٣ فجعه القدر في وحيده محمد وكان طالباً بالثانوية العامة حيث فقد بفقده كل أمل كان ينتظره منه في شيخوخته ، وقد اترعت هذه الفاجعة نفسه وزادته حسرة على حسرة وانطواءاً على أنطواء ، حيث كان الشاعر طول حياته يؤثر التوحد على نفسه بسبب يتمه المبكر والحرمان من رعاية الأب والأخوة فزهد في الشهرة وتحاشى الأضواء وعكف على همومه وأوجاعه ، ولمقدرته على امتلاك ناصية التعبير الشعري وخبرته بادواته الخبرة الكاملة تجده يدرك معنى وظيفة الشعر وأهميتة فهو (شاعر فنان

أصيل ، تنبع من أعماق نفسه جداول متعددة من الفن ينضاف إلى ذلك أنه موسيقي ذواق وخطاط ماهر ، واتفاق هذه الفنون دليل على أصاله الملكة وعراقة الفن لديه) . [٢]

هذا غيض من فيض عميم لسيرة هذا الشاعر الدكتور[٣] وقليل من كثير ولو أردتُ أن أفسح القول في معالم حياته ومظاهر تكوينها لامتد القول وتشعب الحديث ولكنني قصدت الإشارة في إيجاز كاشف يبرز مدى ما تملكه هذه الشخصية المتفرده من قوة في التعبير الشعري المفعم بالعاطفة الفائرة ، والاحساس الجياش في قالب فني آسر بديع ، وهذا ما ستسعى إليه هذه الوقفة المتأملة مع نصه الشعري الرائد الذى نسجة في وفاة ولده الوحيد محمد والذي اغتالته المنية وهو ما يزال في ميعة الصبا .

الفصل الأول

من معالم التجربة الابداعية في القصيدة

ويتشكل في الآتي :

- النظر في قيمة القصيدة ومناسبتها .
- رؤية تحليلية لأبعاد القصيدة .

أولاً : القصيدة الدالية[1] :

ودعت فيك صفاء العيش يا ولدي ... يا طول همي ويا حزني ويا كمدي
لم يبق بعدك معنى للحياة ولم ... يعد بها أمل أحيا به لغدى
من شاقه المال والجاه العريض فقد ... عزفت عن جاهها أو مالها اللبد
وما انتفاعي بالدنيا وليس بها ... من كان عزي وآمالي ومرتغدي
كم ادخرتك للأيام في كبري ... لكنه القدر المحتوم لم يردِ
واحسرتاه وكم أملت فيك جنى ... حتى خلت منك بالبين المشت يدي
غالت شبابك نكباء المنون فلم ... ترحم فؤادي ولم تشفق على كبدي
يا ويحها قدت الغصن الندي ولم ... ترفق يداها بغصن للشاب ندي
وحطمت صرح آمال لنا فهوى ... بعد الشموخ كأن لم نبن أو نشد
ليت الحمام الذي أرداك عاجلني ... وفي جوارك يمسي في الثرى جسدي
أصبحت أهواه كي القاك مرتقبا ... لهفان لهفة مشتاق إليه صدى

---

(١) تنظر أبيات هذه القصيدة في كتاب من أعلام الأدب العربي المعاصر الشاعر الدكتور / حسن جاد دراسة ومختارات شعرية من ص ١٠٨ /١٢٠ نظراً لأن ديوان الشاعر لا يزال مخطوطاً سجين الأوراق ، وسنكتفي بدراسة الأبيات من١/٤٣ وذلك لطول القصيدة بصورة مفرطة غير معهودة في شعرنا العربي ، وقد أفاض أ.د/ صابر عبد الدايم في تفسير بعض ما استغلق من الرؤية اللغوية للنص في كتاب سيادته السابق الاشارة إليه فلا داعي للتكرار.

أصبحت أهـواه كـي القـاك مرتقبـا ... لهفـان لهفـة مشـتاق إليـه صـدى
وكيـف أحيـا بـلا ظـل ولا عضـد ... وكنت ظلـي فـي الـدنيا ومعتضـدي ؟
وكيف اسـلك دربـاً قـد فقـدت بـه ... رفيـق دربـي ومعـواني ومعتمـدي ؟
كنت الرجاء الـذي أحيـا بـه ولـه ... فحـين خـاب رجـائي خـانني جلـدي
وكنت أخشى الردى حرصاً عليـك إذا ... ما غـالني حـرص لقمـان علـى لبـدِ
يا ليت أني مـا جئـت الحيـاة فلـم ... أولـد ويـا ليتنـي إذا جئـت لـم ألـد
ما كنـت أحسـب أن البـين يفجعنـا ... وهنـا علـى غـرة فـي ليلـة الأحـد
هـلا تمهلـت يومـاً كـي تودعنـا ... فقـد رحلـت سـريعاً غيـر متئـد
عدا عليك الـردى كـاللص مختلسـاً ... في هـدأة الليـل لـم ينـذر ولـم يعـد
وأنت تصغي إلى صوت المسجل فـي ... لحـن الـوداع بسـمع جـد محتشـد
تعيـد ترديـده لهفـان محتضـناً ... إن ينتـه اللحـن تبدئـه وتسـتعد
هل كنـت بـالنغم البـاكي تودعنـا؟ ... وهل بقرب النوى أحسست يـا ولـدي؟
كفي عن الدمع يا عينـي فلـيس بـه ... جدوى سوى قرحـة الأجفـان والرمـد
أو فاسـكبيه فمـالي فيـك مـن أرب ... دفنت نورك فـي جـوف الثـرى الهمـد
إذا جرى في غضـون الخـد لـذعني ... أواره بلظـى كـالجمر متقـد
كم لائم في الأسى الموصول قلت لـه ... عـزراً لـدائم دمـع فيـه مطـرد
أبكيه حتـى إذا لـم يجـدني حزنـي ... بكيت مـن أجـل أن الحـزن لـم يفـد
أقسمت مـا عشـت أبكيـه وأذكـره ... مهمـا تظـاهرت بالسـلوان والجلـد
وكيـف أنسـاه والـذكرى تلاحقنـي ... ولـيس قلبـي بالجـافي ولا الجحـد
محمـد يـا أعـز اسـم أردده ... كأنه اللحن فـي سـمعي وفـي خَلَـدى
يا قرة العين يا روحي ويـا عمـري ... ويا امتدادي ويـا ذكـري ويـا مـددي
ويا وحيدي ويا ذخـري ويـا أملـي ... مصـيبتي فيـك لـم تنـزل علـى أحـد
إذا استجرت مجير الصبر فيـك أبـى ... وإن بحثـت عـن السـلوان لـم أجـد
وكيـف يسـعفني صـبر ألـوذ بـه ... ولوعة الخطـب فـوق الصـبر والجلـد

لم أنس ساعة عاينت المنـــون وقـــد فاضـــت دموعـــك حتـــى مزقـــت كبـــدي
إذ تســـــتجير بأنـــــات مهدجـــــة علـــى لســـان عـــن الإفصـــاح منعقـــد
تكابـــد الكـــرب ملتاعـــاً لفرقتنـــا والـــدمع ينهـــل مـــن عينـــاك كـــالبرد
ورحت تهتف باسمي لوعـــة وأســـى فكـــان آخـــر مـــا رددت للأبـــد
بنى لـــو تفتـــدى لـــم نـــأل تضـــحية بالمال مهمـــا غـــلا والـــروح والجســـد
مالي من الأمر شـــيء أســـتطيع بـــه رد الـــبلاء ولا دفـــع الـــردى بيـــدي
أعيا القضاء سباق الطب فيـــك ومـــن ينجي الفريسة ســـبقاً مـــن فـــم الأســـد؟
إذا جـــرى القـــدر الماضـــي لغايتـــه لـــم يمنـــع الطـــب مقـــدوراً ولـــم يـــزد

النظر في قيمة القصيدة ومناسبتها: (ولدى) [٢]

توفي ظهر الأحد ٢٢/يوليو ١٩٧٣م

" عليك يا ولدي الوحيد أسكب هذه العبرات الشعرية الحزينة رثاء لك وتفجعاً عليك ، ولوعة لمصابك ، وحسرة على شبابك ، وفيك يا بني الحبيب أبكي بالقصيد المعول ، والقوافي النادبة ، وجودي الذى فرغ ، ونوري الذى انطفأ ومددى الذي انقطع ، وظلي الذى زال ، وأملي الذى ضاع ، ورجائي الذى خاب.

وإذا كانت فجيعتي فيك أكبر من كل تعبير ، وأقوى من كل تصوير ، فإن هذه الأبيات على أي حال نبرات من شجون الخاطر الكاسف المكسور وقطرات من دماء القلب النازف المفطور ، وزفرات من لهيب الصدر الواله المكروب ، ولفحات من سعير الضرم الواري في أعماق المشاعر والوجدان "

---

(٢) هذه المقدمة كتبها الشاعر حسن جاد إزاء تقديمه لقصيدته النادبة وبما أن ديوان الشاعر لا زال مخطوطا فقد اعتمدت في الدراسة على نص القصيدة المنشور في كتاب أستاذنا الدكتور / صابر عبد الدايم بالاشتراك مع د/ حسين على محمد عن الشاعر حسن جاد.

هذه المقدمة قد كتبها الوالد المكلوم المحزون في فقد ولده الوحيد الذي فتكت به أنياب الموت المسنونة وهي تقدمة قوية ومؤثرة وتكشف إلى أي حد كانت الحسرة تسيطر على قلب هذا الشاعر النابض الحي إزاء الفتك المريع الذي حل بوحيده ، وقد تجلى ذلك جلياً بروعة واقتدار في هذا النسق الفني الذي أسماه (ولدي) أو (لحن الوداع) والذي أستطيع أن أشير إليه هنا أن هذه القصيدة قد طالت بصورة غير مألوفة في شعرنا العربي حيث قاربت المائة بيت مما يعكس حالة الوهج للقوافي النادبة التي تسيطر عليه والتي أبرز من خلالها أساه وحسرته إزاء فجيعته التي حلت به والتي صدرت عن قلب نازف مفطور ، وزفرات لهيب صدر واله مكروب ، ولو رحت أنقب بالبحث عن أسرار ودلالات هذا الوهج الفني لهذ المرثية لاتسع الحديث مما سيجعلني أقف بالنظرة الفاحصة المتفرسة مع بعض اللوحات أو المشاهد الكبرى التي جاءت في أعطاف هذه القصيدة الطويلة كما أشرت سابقا مستكنها أسرارها وعوالم تشكيلها وكيف خرجت من بين حنايا مبدعها أثراً فنيا خالد الذكر .

والنص يمثل حالة خاصة من الروعة والألق الفنى فى اتجاه نصوص الرثاء فى شعرنا العربى الحديث فى مصر ، ولولا لجوء الشاعر الى ربه واعتصامه به لاهلكه الحزن ، وصدق من قال فى سياق الحديث عن موت الولد (إن موت الولد صدع فى الكبد لاينجبر آخر الأبد). [٣]

---

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي الجزء ٢ ص ١٦٩ دار الأندلس بيروت . لبنان ط١ ١٩٨٨ .

والحق إن هذه الدرة قد أجاد شاعرها فى تشكيلها فخرجت مادة حية تنبض بالتعبير المفعم بالعاطفة الأسيانة الضارعة ، والاحساس المتوهج فى صورة فنية بديعة متألقة ، ولهذه المقدرة الفنية العالية والقدرة على التصرف فى تشكيل الأبيات والسمو بالشعر والتفنن فى توظيفه لتجميل الحياة وترقية الذوق ، لهذا كله قد استحق الشاعر الدكتور حسن جاد أن يلقب بعميد الأدب العربى فى المهرجان الذى أقيم فى ابريل ١٩٧٨ وضم شعراء الجمهورية وشواعرها ولكنه رفض هذا التنصيب وبذلك تكون هذه القصيدة المتفردة وغيرها سببا فيما حظى به الشاعر من شهرة ، وهو بها جدير واستحق أن يحتل مكانه فى الصف الأول فى حركة الشعر العربى الحديث فى مصر .

رؤية تحليلية لأبعاد النص :

بداية يمكن القول بأن ظاهرة رثاء الأبناء تضرب بجذورها العميقة الممتدة في مسيرة شعرنا العربي منذ بداية العصر الجاهلي وتضامناً مع ما يليه من العصور الأدبية حتى يصل إلى العصر الحديث ، إضافة إلى أن كتب الأدب قديمها وحديثها تذخر بأسماء لمعت في سماء هذه الظاهرة (رثاء الأبناء) حتى وصل الأمر إلى أن بعضهم قد وقف ديواناً كاملاً على رثاء إبنه وهو الشاعر أبو الحسن على بن عبد الغني الحصري (شاعر القيروان) وسماه (اقتراح القريح واجتراح الجريح) وكل ذلك يدل دلاله قاطعة على أن موضوعنا – رثاء الأبناء – يشكل موضوعاً مهماً طالما قد ملك على معظم شعراء العصور الأدبية أقطار نفوسهم ولعل من أبرز من قاموا بتناول هذه الظاهرة حتى أصبح نهراً متدفقاً في أدبنا العربي حتى عصرنا الحديث .

أبو ذؤيب الهذلي الذي يقول في رثاء أبنائه :[٤]

قالـــت أميمـــة مـــا لجســـمك شـــاحبا منـــذ ابتـــذلت ومثـــل مـــا لـــك ينفـــع؟
فاجبتهـــا أن مـــا لجســـمي أنـــه أودى بنـــي مـــن الـــبلاد فودعـــوا

وهذا جرير يرثي ابنا له يقال له سوادة هلك بالشام يقول : [٥]

قالوا نصـيبك مـن أجـر فقلـت لهـم مـــن للعـــرين إذا فارقـــت أشـــبالي؟
قـــد كنـــت أعرفـــه منـــي إذا علقـــت ذهـــن الجيـــاد ومـــدَّ الغايـــة العـــالي
فارقتني حين كف الـدهر مـن بصـري وحـــين صـــرت كعظـــم الرمـــة البـــالي

وكذلك بشار يقول في رثاء ابنه محمد : [٦]

كـــأني غريـــب بعـــد مـــوت محمـــد ومـــا المـــوت فينـــا بعـــده بغريـــب

ويستقطب ابن الرومي القلوب بفجيعته في ابنه الأوسط محمد حين يرثية وهو يلفظ أنفاسه : [٧]

ألـــح عليـــه النـــزف حتـــى أحالـــه إلى صفرة الجادي عـن حمـرة الـورد
وظـــل علـــى اليـــدي تســـاقط نفســـه ويزوي كما يزوى القضـيب مـن الرنـد

---

(٤) ديوان الهذليين القسم الأول ص ٢ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٥م .

(٥) شرح ديوان جرير تـأليف محمد الصاوي ص٤٣٠، ٤٣١ الشركة اللبنانية للكتاب . بيروت – لبنان .

(٦) ديوان بشار بن برد ج١ ص٢٧٩ الشيخ طاهر بن عاشور – الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٦م

(٧) ديوان ابن الرومي ٦٢٤/٢ تحقيق الدكتور / حسين نصار ط دار الكتب .

والصنوبري يجد نفسه الأحق برثاء ابنته وحيدته (ليلى) [٨]

سـأبكي مـا بكـى القمـرى بنتـي ببحـر مـن دمـوعي بـل بحـور
ألسـت أحـق مـن يبكـي عليهـا إذا بكـت الطيـور علـى الطيـور

وغير هؤلاء نفر كثير من الشعراء تناولوا هذا التيار منذ العصر الجاهلي وحتى عصرنا الحديث وأنتجت قرائحهم الشعرية نماذج رائدة في هذا الموضوع وحين نصل إلى العصر الحديث نجد مجموعة قوية رثت أبناءها ويأتي في طليعتهم عائشة التيمورية [٩] ، وعلى الجارم [١٠] ، وحسن جاد صاحب الدراسة [١١] .

وحين نمعن النظر في الأبيات محل الدراسة نجد أن شاعرنا ركز على توجيه الخطاب الدائم إلى وحيده (محمد) وقد احتوى هذا الخطاب في تضاعيفه على أفكار رئيسية أو عدة لوحات خلصت في ثوبها النهائي على المعاني الآتية ، ففي المقطع الأول من الأبيات كشف الشاعر عن حالته السيئة بعد وفاة ابنه ، وكيف أنه ودع صفاء العيش وهنائه بوداعه فالحياة لم يعد لها طعم لديه فأمله قد خاب وذلك لأن ابنه كان أمله الذي يحيا به في الغد ، كما يؤكد الشاعر على أن المال والجاه أصبح لا يخلب نظره كما يخلب نظر الآخرين ومرد ذلك يكمن في فقد من كان عزه وأمله ومرفده .

---

(٨) ديوان الصنوبري ص١٠٤ تحقيق د / احسان عباس بيروت – دار الثقافة ١٩٧٠م

(٩) قالتها في رثاء ابنتها توحيده ، ينظر حلية الطراز ديوان عائشة التيمورية ص١٩٠/١٩٢ ط قصور الثقافة ط٦ ٢٠٠٤ .

(١٠) ديوان على الجارم في قصيدته التي رثي فيها صديقه عبد الوهاب النجار ثم عرج فيها على رثاء نجله الذي فقده وهذا هو ديدنه كان إذا رثي صديقا ما ، هاجته الذكرى فيرثي ولده ، ينظر الجارم في ضمير التاريخ ص٢٩٣ د / أحمد على الجارم ط١ ١٩٩٤م

(١١) قصيدته (لحن الوداع أو ولدي) محل الدراسة .

ولكن هيهات هيهات فالقدر المحتوم لم يرد أن يبقي له هذا الوحيد ليكون مدخراً له عند الكبر ، يقول في أسلوب يزفر بالأسى واللوعة:

ودعت فيك صفاء العيش يا ولدي ... ياطول همي ويا حزني ويا كمدي
لم يبق بعدك معنى للحياة ولم ... يعد بها أمل احيا به لغد
من شاقه المال والجاه العريض فقد ... عزفت عن جاهها أو مالها اللبد
وما انتفاعي بالدنيا وليس بها ... من كان عزي وآمالي ومرتغدي
كم ادخرتك للأيام في كبري ... لكنه القدر المحتوم لم يرد

لقد ترك فراق (محمد) وحيده لديه ألماً لا يغيض وحسرة لا تنقطع وهما لا يغادر فؤاده ، لقد اغتاله الموت في شبابه الزاهر ولم يصبر على الوالد حتى يجني الجنى .

واحسرتاه وكم أملت فيك جنى ... حتى خلت منك بالبين المشت يدي

إن ريح المنون العاصفة قد اغتالت هذا الشباب فلم ترحم فؤاد والده ،ولم تشفق على فؤاده المفطور المتصدع وكان الأولى بهذه الريح العاصف أن تترفق بهذا الفرع الغض ولكن بموته تحطمت الآمال وقوضت صرح والده السامق فكأنه لم يبن ولم يشد .

غالت شبابك نكباء المنون فلم ... ترحم فؤادي ولم تشفق على كبدي
يا ويحها قدت الغصن الندي ولم ... ترفق يداها بغصن للشباب ندي
وحطمت صرح آمال لنا فهوى ... بعد الشموخ كأن لم نبن ولم نشد

ويبلغ خطابه الغاية في اللوعة حين يصل في تمنيه للحمام الذي عاجل وحيده حتي يمسي بجواره في التراب لقد أصبح يهوى الموت وهذه هواية غير محببة لدى النفس قاطبة ، وكيف لا يهوى الموت طالما أن الموت سيقربه من قرة عينه وثمرة فؤاده .

إن الشاعر لا يصدق أنه سيحيا بلا ظل ولا عضد يقويه على نائبات الدهر حين تنوب كما أنه كيف سيسير في طريق يفقد فيه الرفيق والعون والمعتمد ولما سقطت هذه النائبة خاب رجاؤه وذوى أمله وسقط جَلَدَهُ ، وكم كان حريصاً على الخشية من الموت فلما وقعت الواقعة صار الموت محبباً إلى نفسه وتمنى أن لم يجئ إلىالحياة فلم يولد ويا ليته لم ينجب حتى لا يصاب مرة أخرى بمرارة الفقد ولوعة الحرمان يقول :

ليت الحمام الذي أرداك عاجلني ... وفي جوارك يمسي في الثرى جسدي
أصبحت أهواه كي ألقاك مرتقباً ... لهفان لهفة مشتاق إليه صدى
وكيف أحيا بلا ظل ولا عضد ... وكنت ظلي في الدنيا ومعتضدي
وكيف أسلك درباً قد فقدت به ... رفيق دربي ومعواني ومعتمدي
كنت الرجاء الذي أحيا له وبه ... فحين خاب رجائي خانني جلدي
يا ليت أني ما جئت الحياة فلم ... أولد ويا ليتني إذا جئنت لم ألد

ثم يتحول الشاعر بعد هذا المشهد الموحي المؤثر والذي قدم فيه وصفاً شاملاً لموقفة بعد وفاة وحيده إلى الراحل العزيز مبرزا هول الفجيعة التي حلت به على غرة حيث كان يعيش فرحاً مسروراً غافلا عما تخبئه مجريات الأقدار لقد رحل سريعا بدون توديع وعدت عليه عوادي الردى كاللص العادي المختلس في هدوء الليل وسكونه ، ولا تزال صورة ولده عالقه في ذهنة وهو على سريره يستمع إلى صوت المسجل الذي يرسل لحن الوداع وهو محتشد في ترديده لهذا اللحن كاللهفان المحتضن فما أن ينته يظل يبدئه ويعيده ، وكأنه كان يودعهم بهذا النغم الباكي وكأن وحيده أيضا يحس بقرب نهايته يقول في نسق فني باك مؤثر:

ما كنت أحسب أن البين يفجعنا وهنا على غرة في ليلة الأحد
هلا تمهلت يوما كي تودعنا فقد رحلت سريعاً غير متئد
عدا عليك الردى كاللص مختلسا في هدأة الليل لم ينذر ولم يعد
وأنت تصغي إلى صوت المسجل في لحن الوداع بسمع جد محتشد
تعيد ترديده لهفان محتضنا إن ينته اللحن تبدئه وتستعد
هل كنت بالنغم الباكي تودعنا وهل بقرب النوى أحسست يا ولدي ؟

ولا يزال هذا المشهد متواصلاً أعنى الحديث إلى ولده حيث يريد من عينه أن تكف عن الدمع المدرار فليس من وراء ذلك سوى قرحة الأجفان ورمد العيون وإن كان من بد فاسكبي الدمع لأنني أصبحت خالي الوفاض ولا حاجة لي فيه وذلك لأنني دفنت نورك في غياهب الثرى فنور عينه ولده .

كفي عن الدمع يا عيني فليس به جدوى سوى قرحة الأجفان والرمد
أو فاسكبيه فمالي فيك من أرب دفنت نورك في جوف الثرى الهمد

كما يجيد الشاعر الرد على لائميه في أساه الموصول الذي هد كيانه جراء هذا الفقد حيث سيظل يبكيه بدمع رائح غالي وسيظل البكاء مسيطراً عليه حتى إذا لم يجد الحزن سبيلاً إليه .
لقد أقسم أنه طيلة حياته سيبكيه ويذكره مهما عرت مظاهر السلوان والصمود ، وكيف ينسى قرة عينه وذكراه تلاحقه ؟ يقول في أسلوب ينضح بالأسى الكارب:

كم لائم في الأسى الموصول قلت له ... عذرا لدائم دمع فيه مطرد
أبكيه حتى إذا لم يجدني حزني ... بكيت من أجل أن الحزن لم يفد
أقسمت ما عشت أبكيه وأذكره ... مهما تظاهرت بالسلوان والجلد
وكيف أنساه والذكرى تلاحقني ... وليس قلبي بالجافي ولا الجحد؟

ثم يتحول الشاعر بعد ذلك راصداً في مشهده الأخير الوصف البديع والمؤثر لجلال المصيبة وعظم الفجيعة (لحظةالوفاة) وبلا جدال هي من أقسى اللحظات وأفزعها وبالأخص على الوالد ويجسد ذلك حين يهرع إلى ترديد اسمه (محمد) وكأن في ذلك نوعاً من التصبر والتسليه حيث فرغ إلى إبراز الصفات الانسانية الحانية التي تؤرق عليه حسه والتي تسيطر بالطبع على كل ذي حس مرهف ولما لا وهو وابنه ووحيده من مثل : يا قرة عيني ، يا روحي ، يا عمري ، يا امتدادي ، ويا ذكرى ، ويا مددي ، ويا وحيدى ، ويا زخري ، ويا أملي ... كل ذلك مما يجعل القاريء يقف أمام هذه المفردات محللاً إياها ومتأملا ، ناهيك عن جلال النداء وما أضفى عليه جوابه الذي جاء بمثابة الضربة القاصمة (مصيبتي فيك لم تنزل على أحد) .

محمد يا أعز اسم أردده ... كأنه اللحن في سمعي وفي خلدي
يا قرة العين يا روحي ويا عمري ... ويا امتدادي ويا ذكري ويا مددي
ويا وحيدى ويا ذخري ويا أملي ... مصيبتي فيك لم تنزل على أحد

وهو إن حاول أن يستجير بصبر ويجد فيه العزاء والسلوى أبى الصبر أن يكون مجيره ، وإن فتش عن السلوان لم يجد ، وكيف يسعفه الصبر الذي يرتجيه ؟ إنه كلما حاول اللجوء إلى الصبر تخونه جلالة الخطب وعظم المصيبة التي لا يقوى عليها بشر .

وكذلك لا تزال صورة وحيده ماثلة أمامه ليل نهار بل في كل ساعة يعاينها حيث شبت يد المنون وتعلقت به والابن يحاول الاستغاثة بالأنات المتقطعة لحظة خروج الروح وهو لا يكاد يبين :

إذ استجرت مجير الصبر فيك أبى ... وإن بحثت عن السلوان لم أجد
وكيف يسعفني صبر ألوذ به ... ولوعة الخطب فوق الصبر والجلد
لم أنس ساعة عاينت المنون وقد ... فاضت دموعك حتى مزقت كبدي
إذ تستجير بأنفاس مهدجة ... على لسان عن الافصاح منعقد
تكابد الكرب ملتاعاً لفرقتنا ... والدمع ينهل من عينيك كالبرد

إن دموع الراحل التي تقاطرت من عينيه أسى وحسرة على فراق أهله زادت حرقة قلب والده عليه ومما ضاعف هذا السعير المتقد أن راح وحيده يهتف باسم والده فكان آخر ما ردد للأبد .

ورحت تهتف باسمي لوعة وأسى ... فكان آخر ما رددت للأبد
بني لو تفتدي لم نألُ تضحية ... بالمال مهما غلا والروح والجسد
مالى من الأمر شيئاً أستطيع به ... رد البلاء ولا دفع الردى بيدي
أعيا القضاء سباق الطب فيك ومن ... ينجي الفريسة سبقاً من فم الأسد؟
إذا جرى القدر الماضي لغايته ... لم يمنع الطب مقدوراً ولم يزد

فالشاعر قد استسلم ليد القضاء وخارت قواه مزعنة لإرادته كما قد تجلى في الأبيات السابقة .

وبعد هذه القراءة الفكرية للنص وتحديداً للأبيات التي تعكف عليها الدراسة يمكنني القول بأن قصيدة الشاعر حسن جاد في رثاء ولده (محمد) معين ثر من روائع رثاء الأبناء في العصر الحديث ، بما تحتوي عليه من أصالة اللغة الشعرية حيث براعة اللغة ، جزالة الأسلوب وقوته ، وبراعة التصوير وموسيقاه الفخمة القوية ينضاف إلى ذلك البساطة في التعبير فهو من الشعراء المطبوعين الذين يخرج شعرهم إلى عالم الوجود وليس عليه علائم التكلف .

والذي أستطيع أن أجزم به بأن البعد الفكري للأبيات إنما ينبيء عن (شعور صادق يعبر عن نفس مجروحة قد هدها الهم وضعضها الحزن)(١٢) احتراما لقلب الوالد على ابنه الذي رآه يجود بنفسه تحت بصره والذي أسلم الأمر فيه للقدر الماضي صوب غايته ، وبلا جدال فقد جاء هذا النموذج ليقدم صورةراقية من الرثاء الذي يعبر عن شعور عميق بالحزن والألم .

---

(١٢) الرثاء ص٢٣ د / شوقي ضيف دار المعارف ط ٤ .

وعود على بدأ يمكن القول بأن القصيدة كما يبدو للقاريء من أول وهلة (تتجلى في صورة صادقة لخواطره ومشاعره وأحساسيه وأشجانه ومرآة تكشف عن مدى لوعته وحسرته وأسفه وفجيعته في أعز أبنائه وتجربه شعورية تكشف عن نفس مكلومة وقلب عصفت به الأحداث والفواجع ، ..... ومن ثم فإن الشاعر صادق العاطفة في كل كلمة قالها وكيف لا يكون صادقاً وهو يتحدث عن فلذة كبده ، ويرثي قطعة من نفسه ولذا جاءت القصيدة معبرة عن خلجاته وآهاته وزفراته وحسراته أصدق تعبير ، ففي كل نبرة من نبراتها أسى وفي كل صورة من صورها فاجعة حتى إن القارئ ليحس بآلام الشاعر وأحزانه ويشاركه همومه وأشجانه فيبكي لبكائه ويجزع لمصابه) [١٣] .

(١٣) في النص الأدبي العباسي دراسة تحليلية نقدية ص٩٧ وما بعدها د/ محمد حسين عبد الحليم ط١ ١٩٩٠م

الفصل الثاني

السمات الفنية للنص

وبعد الوقوف على ما اشتمل عليه النص من معان وما تضمنه من أفكار جاءت مصورة بدقة بالغة ما اعتمل نفس الشاعر من مشاعر السخط والجزع إزاء فقده لوحيده محمد يطيب لي بعد ذلك أن أحاول الدخول إلى العالم الفني للنص واستكناه أسرار ذلك ، حيث الأفاق الفنية والجمالية التي حلق فيها النص ، وقد جاء ذلك متمثلا في عدة لبنات شكلت مجمل البناء الفني على النحو التالي :

- التشكيل اللغوي .
- الصور والأخيلة .
- الأفكار والمعاني .
- الموسيقى الشعرية .

وها كم الحديث عن كل عنصر من تلكم العناصر بشيء من التفصيل حيث الوقوف على كيفية صياغة الشاعر لعالمه الفني في نصه المتميز في موضوع رثاء الأبناء .

- **التشكيل اللغوي :**

الأسلوب في اللغة الطريق وعرفة ابن خلدون بأنه : (المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه) (١٤) أو هو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصداً للإقناع والتأثير أو هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير (١٥) . أو هو (نهج الكاتب والشاعر في صوغ أدبه وشعره ، وآداء أفكاره ومعانيه ، والطريقة التي يسير عليها في اختيار كلماته وتراكيبه ،

---

(١٤) مقدمةابن خلدون ص٤٧٦ مطبعة التقدم بمصر .

(١٥) الأسلوب أحمد الشايب ص٣٩/٣٣بتصرف .

وما يؤثر في لغة تعبيره وتصويره من سهولة أو غرابة ومن عذوبة أو جزالة ومن وضوح أو خفاء وطبع أو صنعه .....) (١٦) .

وهذه التعريفات تشير في النهاية إلى مقدرة الأديب على كيفية صوغ عمله الفني من خلال طرح أفكاره وعواطفه إلى القارئ أو السامع وكيف أن القصيدة تخرج إلى عالم الوجود في شكل الألفاظ والتراكيب وعن ذلك يمكن القول :

إن القصيدة قد خرجت في شكل ألفاظ سهلة واضحة المعاني بحيث يمكن للمتلقي أن يدرك المفهوم الذي يومئ إليه الشاعر دون الرجوع إلى المعجم اللغوي ، وهذه سمة واضحة في معظم ألفاظ النص وقلما يصادفنا لفظة قد نحتاج في الرجوع إليها للمعجم اللغوي ، ناهيك أيضا عن تراكيب العبارات حيث جاءت هي الأخرى واضحة المعنى ولا تحتاج إلى كد ذهن أو إعمال خاطر ، فهي قد خلت بالفعل من الغموض والألغاز والتعقيد الذي يقف حائلا دون الوصول إلى المعنى والمراد ، ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة المنهج الفني الذي ارتضاه الشاعر لنفسه فهو شاعر الطبع لا الصنعه .

كما أن القصيدة قد حفلت بمعجم شعري خاص جسد وقع الفاجعة والمصيبة التي حلت بالشاعر وقد جاء هذا المعجم متناسباً مع عنوان القصيدة ((لحن الوداع)) إذ القصيدة تموج بعديد من الألفاظ مثل : الهم والحزن والكمد والكبر ، والقدر المحتوم ، والبين المشت ، وغالت شبابك ، نكباء المنون ، وقدت الغضن ، وحطمت الهوى ، ..... إلخ) .

وكل هذا مما يعكس مدى نجاح الشاعر في إفراز سعير تجربته والقدرة على التعبير من خلال اختيار الألفاظ القوية المعبرة التي تنقل ما في أعماق الشاعر من مشاعر وأحاسيس يتجرعها ولا يكاد يسيغها .

---

(١٦) تاريخ الأدب في العصر الأموي ص ١١٠ د / محمد خفاجي مكتبة الكلية الأزهرية ط٧٥

كذلك يمكن القول بأن الشاعر حسن جاد فى قصيدته صاحب معجم شعرى يلهج فيه بتداول المعنى وإستخدامه فى التعبير لأكثر من لفظ ، وخير ما يعضد صدق ما أقول قدرته الفنية التى تستطيع أن تولد ألفاظ متعدده ومتنوعه تدل على وقع مصيبته التى نزلت به مثل الحزن والهم والكمد فى قوله :

ودعت فيك صفاء العيش ياولدى ياطول همى وياحزنى وياكمدى

والمنون والحمام وقدت الغصن الندى فى قوله :

غالت شبابك بكباء المنون فلم ترحم فؤادى ولم تشفق على كبدى

ياويحها قدت الغصن الندى ولم ترفق بداها بغصن للشباب ندى

ليت الحمام الذى أرداك عاجلنى وفى جوارك يمسى فى الثرى جسدى

وغير ذلك من النماذج التى تمثل حسن براعته للتعبير عن المعنى الدفين الذى يسيطر عليه ويقلق حسه صوب مشاعره الملتاعه لفقد قره عينه .

كما تتجلى براعه التكرار من الشاعر حين راح يردد اسم فقيده بطريقة أو بأخرى مما عكس مدى شده تعلقه به وقربه من نفسه وقد برز ذلك جلياً فى أكثر من موضع فى النص ومنه قوله :

ودعت فيك صفاء العيش ياولدى ياطول همى وياحزنى وياكمدى

وكما فى قوله :

كم إدخرتك للأيام فى كبرى لكنه القدر المحتوم لم يرد

وقوله :-

محمد يا أعز اسم أردده كأنه اللحن فى سمعى وفى خلدى

ياقره العين ياروحى ويا عمرى ويا امتدادى وياذكرى ويامددى

وكل ذلك مما يوحى بشده تمثله أمامه فى كل لحظة وكأنه لم يفارق الحياة(فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة فى العبارة ويكشف عن إهتمام المتكلم بها وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسيه) (١٧)

---

(١٧) قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة ص ٢٤٢ منشورات مكتبه النهضة ط٢ بغداد ١٩٦٥ م

ومن المظاهر اللافتهة فى النص حرص الشاعر على إستخدام (ضمير المتكلم) الذى ألح بشكل ملفت على إستخدامه من أول بيت فى مرثيته المفجعة إذ يقول :

ودعت فيك صفاء العيش ياولدى ياطول همى وياحزنى وياكمدى

حيث (التاء) ضمير متكلم فى الفعل ودعت وكلمه (ولدى) نايك عن حفول الشطر الثاني من البيت لأربع كلمات منهن ثلاث كلمات تجتمع على ياء المتكلم ومنها أيضاً حرصه على اقتسام الحوار فى مرثيته هذه بينه فى حال أساه وبين ابنه فى حال فقده له فكثيرا ما خاطبه ويبرز هذا فى ما هو أت من أبيات

كنت الرجاء الذى أحيا له وبـــــه فحين خاب رجائى خاننى جلدى

هلا تمهلت يوماً كى تودعنـــــا فقد رحلت سريعاً غير متئد

وأنت تصغى إلى صوت المسجل فيه لحن الوادع بسمع جد محتشد

حيث " كنت " ، " تمهلت " ، " وأنت تصغى " وغير ذلك من مشاهد إستخدامات ضمائر المتكلم التى تتزاحم فى القصيده ، ولعل السر فى ذلك يكمن (فى المقام الأول إلى إحساس الشاعر بمأساته إحساساً ذاتياً ، فهو لا يشاركه بها أحد غيره ، أو قل لا يشعر أحد بمثل ما يشعر أو يحس (١٨))

ولم لا والمصيبة التى نزلت عليه كانت سحيقة وكأنه لم يصب بها أحد سواه وهذا إشاره إلى قوله :

..... مصيبتى فيك لم تنزل على أحد

وهكذا جاء أسلوب الشاعر قطعه من ذوب نفسه الموجعه والذى صب فيه ببراعة ما يريد أن يخرجه من المعانى إذ جاءت الألفاظ ملائمة للتجربة التى اصطلى بنارها ودعا المتلقين من خلالها أن يشاركوه همه الكارب .

---

(١٨) رثاء الأبناء فى الشعر العربى ص٨٣ د مخيمر موسى يحيى – مكتبه المنار – الأردن.

- **الصور والأخيلة :**

تقوم الصورة بدور كبير في إضاءة جوهر الشعر وهي من أخص خصائصة وقد تعددت تعريفات النقاد لهذا العنصر الفني فذهب بعضهم إلى أنها أحد الوسائل الفنية المستخدمة في القصيدة ، ويتكون من مجموعة من العناصر المتباينة والجزئيات المختلفة التي تتآزر لتخرج في النهاية قدرة تعبيرية عن موقف ما(١٩) .

ويذهب آخر إلى أن الصورة الفنية عبارة عن (التركيب القائم على الإصابة في التنسيق الفني الحي لوسائل التعبير التي ينتقيها وجود الشاعر – أعني خواطره ومشاعره وعواطفه – المنطلق من عالم المحسوسات ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى في إطار تام محس مؤثر على نحو يوقظ الخواطر و المشاعر في الآخرين) . (٢٠)

وقد أفرزت مخيلة الشاعر حسن جاد العديد من أنماط الصور والأخيلة التي تجسد بحق صدق التجربة وملامسة جوهر الفقد ويبدو أن الشاعر كان يدرك العلاقة الوطيدة بين المبدع والمتلقي أعني مشاعر وعواطف المبدع من ناحية وإلهاب خواطر المتلقي الذي هو لب عملية الإبداع الشعري وذلك من أبرز غايات العمل الأدبي ، ناهيك عن حفول الصورة لدى حسن جاد بالتموجات والدفقات الشعورية التي تأثر لب المتلقي ومرد ذلك إنما يرجع إلى مقدرته على التصوير البياني للغة والتمكن من الصياغة ذات الايحاءات والظلال وبتفرس معالم النص نجد ألواناً من الصور المتألقة شكلها وجدان الشاعر .

فمن أول بيت في النص قوله :

ودعت فيك صفاء العيش يا ولدي يا طول همي ويا حزني ويا كمدي

---

(١٩) عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى ص٢٤٧ عباس بيومي عجلان ط دار المعارف.

(٢٠) الصورة الأدبية تاريخ ونقد ص ١٤٩ د /على صبح ط الحلبي القاهرة د/ت

حيث احتوى هذا البيت على صورة بيانية رائعة تشكلت في كيفية تصوير الشاعر لحياته مع وحيده وهو تصوير ينبأ عن مدى صفاء عيشه وخلوها مما يعكر صفوها ، وفي هذا كناية بخبر خلو حياته من الهم والحزن وقد ودع هذه الحياة الهانئة بوداع محمد ، إضافة إلى حشد البيت باستعارة قوية جعلته ينادي من خلالها أمور معنوية (يا طول همي ، يا حزني ، يا كمدي) وقد تخيل الشاعر هذه المعنويات في شكلية إنسان يناديه فيجيب .

كما جاءت صورة الاستعارة في قوله : لم يبقى بعدك طعم للحياة ، مبرزةً بأن للحياة طعم والحياة أمر معنوي وفي ذلك دلالة قوية توحي بأن الحياة قد تفلتت من بين أصابعه برحيل وحيده فلم يعد لها أثر في نفسه ، وإن كان ذلك التعبير يحمل في طياته لوناً كنائيا يبرز مدى أساه وحسرته التي نغصت حياته .

وكذلك قوله:

غالت شبابك نكباء المنون فلم ترحم فؤادي ولم تشفق على كبدي

مما يحمل في طياته أسلوباً استعاريا حيث جعل المنون تغتال كأنها إنسان فهو يجعلها تتصرف تصرف الإنسان فهي لم ترحم فؤاده ولم تشفق عليه ، وذلك أيضاً يقترب من انواع التشخيص الذي يستطيع الفنان من خلاله أن (يجسد المعنى ويبعث الحياة في الصلب الجامد ويوجد الرموز للمحسوسات ويجسم الأفكار التي تتخايل من وراء الصور) .(٢١)

وكذلك قوله :

يا ويحها قدت الغصن الندي ولم ترفق بداها بغصن للشباب ندي

مما يوحي بتشخيص قوي ومؤثر إذ راح يجعل المنون تقطع هذا الغصن الندي كما أن ذلك يكشف عن حداثة

(٢١) الصورة الأدبية ص١٢٦ د/على صبح ط الحلبي .

فقيده وغضاضة سنه وهذا كله مما يشير إلى مقدرة الشاعر على براعته في التعبير والحرص على استخدام الصور الموفقة التي تكشف للمتلقي حجم مصيبته .

ويبدو أن الشاعر لديه ولع بتوظيف فن الاستعارة هذا اللون البياني الذي استطاع أن يوظفه توظيفاً بارعاً وكأني به من خلاله يكشف عن قضيته وأساه إزاء فقد وحيده ولعل ذلك تياراً جارياً في النص أجاد الشاعر توظيفه ومنه أيضا قوله :

وحطمت صرح آمال لنا فهوى بعد الشموخ كأن لم نبن أو نشد

إذ لشدة سيطرة حالة الجزع عليه راح ينسب التحطيم إلى المنون ، والتحطيم هذا من شأن الإنسان وكأني به أيضا يريد أن يكرر شدة حرصه على صرحه الذي هوى ، وتتجلى روعة التعبير بالفعل (فهوى) حيث يبرز سرعة حلول الانهدام والتحطيم على يد هذه المنون التي أزوت فلذة كبده وذلك كله على هيئة ثوب الاستعارة وبهذه النماذج وغيرها من صور الإستعارة تكون (الإستعارة أقرب إلى الشعر والصق به بل هي روح الشعر ، فالشاعر بفضلها يستطيع أن يقيم علاقات بين الأشياء لا تكون سطحية أو ظاهرية في الأغلب وهذه العلاقات تزيد جمال الشعر لما فيها من إيحاء في التصوير ودقة في التعبير) . (٢٢)

وكما نجح الشاعر حسن جاد في استخدام أساليب الاستعارة إزاء عرض مرثيته الباكية ، كذلك قد قام بتوظيف الصور التشبيهية التي تمكنت من شرح عاطفته الموجعه وإبرازها والكشف عن الهم المسكون الذي يحتويه ومن مظاهر ذلك قوله :

أصبحت أهواه كي ألقاه مرتقبا لهفان لهفة مشتاق إليه صدى

---

(٢٢) شعر عمر أبو ريشه قراءة في الأسلوب ص١١٣ محمود شفيق لاشين كتابات نقدية ٢٠٠٩

حيث تصوير حنينه وهواه وإرتقابه للقيا وحيده بلهفة المشتاق الذي يكتوي بحريق الشوق إلى من يهوى ، كما عكس اشتمال الصورة على كلمة صدى لشدة الوجد وشوقه العارم لوحيده .

وكقوله :

وكنت أخشى الردى حرصاً عليك إذا ما غالني حرص لقمان على لبد

هذه الصورة التي جسدت حرص الشاعر على ولده وخوفه عليه كحرص لقمان على نسره ((لبد)) هذا النسر الذي ارتبطت حياته بحياة لقمان إذا لابد أن يحرص عليه فبه حياته وبالفعل كذلك كان حرص شاعرنا على ولده وحدبه العارم عليه إذ به أيضاً حياته.

ومنه قول الشاعر :

عدى عليك الردى كاللص مختلساً في هدأة الليل لم ينذر ولم يعد

وهي صورة رائعة حقاً حيث شبه عدوان الموت على ابنه بصورة اللص المختلس المحتال الذي يختلس فريسته في هدأة الليل وسكونه دونما سابق إنذار ولكن هذه الخلسة قد سبقها عدو الردى .

ومن بديع تشبيهه أيضا قوله :

تكابد الكرب ملتاعاً لفرقتنا والدمع ينهل من عينيك كالبرد

ففيه تصوير لصورة الدمع الذي ينهل كالبرد وهو قطرة الماء الصافية وقد تكشف روعة التشبيه هذه عن الحالة المسيطرة على الشاعر إزاء فقد وحيده فيبدو أنه قد أحس ببرودة أوصال جسمه نتيجة العزلة التي أحاطت به إزاء فقده لحبيبه .

بهذه الصور التشبيهية التي عرضتها وغيرها مما لم يعرض يمكن القول بأنها كانت قادرة على التعبير عن وجدان الشاعر مجسدة واقعه النفسي والشعوري فالتشبيه (ينقل الذهن من شيء إلى شيء آخر طريف يشبهه أو صورة بارعة تمثله ، وكلما كان الانتقال بعيداً قليل الخطور بالبال أو ممتزجاً بقليل أو كثير

من الخيال كان التشبيه أروع في النفس وأدعى إلى إعجابها واعتزازها). (٢٣)

وبالفعل قد نجح الشاعر في ذلك وجعل من أنساق التشبيه التعبيرية توظيفاً جيداً في الكشف عن مكنونات نفسه وحالته الملتاعة .

وتارة ثالثة ينوع الشاعر الدكتور في استخدام طرق تكوين الصورة ورسمها حين يلجأ بصورة ملفتة إلى عنصر (التشخيص هذه الوسيلة الفنية التي تتكئ على أساس تشخيص المعاني المجردة ومظاهر الطبيعة الجامدة في صور كائنات حية تحس وتتحرك وتنبض بالحياة) .(٢٤)

إن للتشخيص أهمية بارزة في تكوين العمل الشعري ولم لا وهو جوهر الخيال الشعري المجنح حيث (يخلع الصفات الإنسانية والمشاعر على الأشياء المادية والتصورات المجردة فهو عملية نفسية صرفة تجعلنا في العمل الأدبي نمارس حياة حسية نتمثلها في الألفاظ وفي إشعاعات الألفاظ وفي الدلالات الرمزية للألفاظ.(٢٥)

وحين ننعم النظر في سياق هذه المرثية وما احتوت عليه من صور فنية بديعة نجد في أصدائها الدلائل القوية التي تبرز مقدرة الشاعر على توظيف هذا اللون ومن ملامح ذلك قوله :

غالت شبابك نكباء المنون فلم ترحم فؤادي ولم تشفق على كبدي

فراح يجعل المنون تغتال كأنها إنسان ، وهذا من أنواع التشخيص الذي يستطيع الفنان أن يحيل المحسوسات أو المعنويات ويجعلها تتصرف تصرف الانسان فالمنون قد اغتالت ولده وقرة عينه ، وكذلك حين يجعلها تقد غصنه الندي ولم تترفق به كما في قوله :

---

(٢٣) النابغة الذبياني د/ عمر الدسوقي ص٧٤ ط١ ١٩٥٩ القاهرة .

(٢٤) عن بناء القصيدة العربية الحديثة د/ على عشري زايد ص٨٠ دار العلوم ط١ ١٩٧٨ .

(٢٥) الأسس الجمالية في النقد العربي د/ عز الدين اسما عيل ص٢٠٦ الفكر العربي ١٩٥٥.

يا ويحها قدت الغصن الندي ولم ترفق يداها بغصن للشباب ندي

ويتجلى كذلك عظم التشخيص الذي ينبعث من قوله :

ما كانت أحسب أن البين يفجعنا وهنا على غرة في ليلة الأحد

فالشاعر المكلوم يجعل البين يفجع وذلك أمر معنوي وذلك من أنواع التشخيص فهو يلبس البين (الفراق) صورة المُفْجِع المُحْزِن وهذا أمر معنوي مجرد أضفى عليه صفة الكائن الحي مما جعلنا نتأثر بنبض الصورة وحيويتها .

وبهذه المحاور الثلاثة التي أجاد الشاعر توظيفها (استعارة وتشبيه وتشخيص) من أجل تشكيل صوره الحزينة الكاوية والتي نجح بالفعل في إخراجها وجاءت هذه الصور متعاضدة مع وسائل التشكيل الأخرى في سبيل انضاج التجربة ونقلها نقلاً فنياً صادقاً .

بلا جدال هي صور ناجعة أفرزت مشاعر خاصة لعظم البلوي التي سحقت كيانه وهي صور في مجملها تعد فلته من فلتات الشاعر صاغها في أسلوب فني بديع .

وكما تفنن الشاعر الدكتور حسن جاد في إبراز صوره الفنية الجزئية التي شاعت في أبيات النص محل الدراسة وساهمت بشكل فاعل كما رأينا إلا أنه يمكن القول بأن هذه النوعية من الصور أفضت في النهاية إلى خلق صور كلية تتجلى في مشهد واحد يحتضن العديد من الصور جنباً إلى جنب وتظهر فائدة الصورة الكلية في أنها (عمل تركيبي يتكون من جزئيات ، ومن هذه الوحدات الجزئية تؤلف الصورة الكلية وهذه الصورة الكلية جديدة كل الجدة ، وتختلف عن الصورة الجزئية حيث إنه لم يكن لها وجود من قبل في عالم الواقع).(٢٦)

ولابد لأي قصيدة أن (تنهض على حشد مجموعة من الصور المتكاملة

---

(٢٦) النقد التطبيقي والموازنات ص١٤١ محمد الصادق عفيفي الخانجي القاهرة ١٩٧٨.

المترابطة التي لا يمكن أن تكون كل صورة فيها مقصودة لذاتها ، وإنما هي جزء أو عنصر من تركيب أكبر ، تتفاعل مع بقية عناصره وتتكامل معها لإحداث تأثير معين متكامل ، ولو كانت كل صورة غاية في ذاتها لتحول العمل الشعري إلى ركام من الصور المتتابعة التي قد تخلب الحواس ولكنها لا تتآزر في النهاية على إحداث التأثير المعين الذي يهدف الشاعر إلى إحداثه من وراء تأليف عمله الشعري). (٢٧)

وقد تكونت لدى شاعرنا صوراً كلية في مشهد واحد هذا المشهد احتوى في تضاعيفه صوراً متنوعة وبالنظر إلى النص محل الدراسة نجد تلكم اللوحة الكاملة التي سأسوقها الآن والتي جاءت محتويه على عديد من الصور الجزئية التي يقول فيها :

ما كنت أحسب أن البين يفجعنا	وهنا على غرة في ليلة الأحـــد
هلا تمهلت يوماً كي تودعنا	فقد رحلت سريعاً غـــير متئد
عدا عليك الردى كاللص مختلساً	في هدأة الليل لم ينذر ولم يعد
وأنت تصغى إلى صوت المسجل فى	لحن الوداع بسمع جـــد محتشد
تعيد ترديده لهفان محتـــضناً	إن ينته اللحن تبدئه وتستعد
هل كنت بالنغم الباكى تودعنا	وهل بقرب النوى أحسست ياولدى؟

والمتأمل فى صميم هذه الأبيات يلاحظ أنها تشكل لوحة كاملة إذا ما تأملها المتلقى غير مبدد لشملها الحقيقى وهو كونها صورا ً جزئية تعاونت مع بعضها البعض حتى أخرجت لنا هذا النسق الكلى الذى يحمل شكل الصورة الكلية ، حين راح الشاعر يرسم عدة مشاهد داخل البوح الكلى فمفاجأة البين بفجيعته فى ولده على غرة ودون سبق إنذار ، وهذه صورة قوية ومعبرة ، ثم رسمه صورة أخرى لولده طالبا ً منه أن يتمهل فى توديعه فلقد اختطفته المنية غير متمهلة .

(٢٧) الصورة الشعرية عند جماعة أبولو ص٢١٠ إبراهيم عطا يوسف دار العلوم ١٩٨٤ .

كذلك وما أروع التصوير لصورة الموت الذى يعدو على ابنه كاللص المختلس الذى يحتال فى عدوه وانقضاضة على فريسته ، ومما عمق الصورة أن اللص (الموت) جاء فى هدأة الليل وبدون سابق إنذار .

يضاف إلى ذلك صورة رابعة تكشف فى طواياها عن إصغاء ولده إلى صوت المسجل حين يسمع لحن الوداع بكل إحتشاد وكأنه يحس بقرب نهايته وترديده اللهف لهذا اللحن وكأنى به قد استساغه فما إن ينتهى اللحن تجده يبدئه ويعيده .

وما أقسى هذه الصور الأخيرة فى اللوحة التى معنا والتى تفصح عن اتصالها وتلاحمهما بسابقتها وهى أن هذا اللحن (لحن الوداع) الذى يستمع إليه ولده إنما كان بمثابة النغم الباكى الحزين الذى يودع به والده وكأنه قد أحس بقرب منيته ودنو أجله .

إن أبعاد هذه الصورة الكلية تلتحم إلتحاماً شديداً ومن العسير فصل أجزائها وإحالتها إلى هذا النثير من أجزاء متفرقة ، ولم لا وقد استطاعت هذه اللوحة فى بوحها الكلى أن تفرز فى مضمونها حزن الشاعر الدائم وأساه وحسرته على فقد ابنه مما جعل الصورة تنتهى تاركة ذلك الأثر العميق .

ولعل أيضاً من أعظم مظاهر الصورة الكلية فى النص هذه اللقطه التى رسمتها وعبرت عنها يد فنان بحق حيث تصويره الجياش بعاطفته الملتهبة الملتاعة للحظة موت ابنه ووحيده فى أبيات غاية فى القوة وشدة السبك وروعة فى التعبير(حيث لا نجد بيتاً يصح أن يقدم أو يؤخر ولا بيتين يمكن أن يكون بينهما ثالث) [٢٨]

---

(٢٨) مقدمه الجزء الأول من ديوان الخليل نقلاً عن / عن اللغة والأدب والنقد رؤية تاريخية ورؤية فنيه ص ٣٨٠ د . محمد أحمد العزب – دار المعارف ط١ سنة ١٩٨٠ .

يقول مجسداً لحظة التوديع : -

لم أنس ساعة عاينت المنون وقد ... فاضت دموعك حتى مزقت كبدى
إذ تستجير بأنات مهدجة ... على لسان عن الإفصاح منعقد
تكابد الكرب ملتاعاً لفرقتنا ... والدمع ينهل من عينيك كالبرد
ورحت تهتف باسمى لوعة وأسى ... فكان أخر ما رددت للأبد

فهذه لوحة كليه كشفت عن أعمق أعماق ما فى نفسية الشاعر من لحظات قاسية مؤلمة فهو بصدد فقد وحيده الذى انعقد لسانه ولم يستطع أن يفصح عن حنايا فؤاده الملتاع حتى سيطر عليه الأسى ومالت شمسه نحو الغروب فجاء الدمع ينهمر من عينيه كحبات البرد ، لائذا بترديد اسم أبيه ليته يستطيع أن يقدم له إنقاذاً من خطوات الموت نحوه ولكن هيهات .

وعود على بدء أقول إننا لم نشعر بتنافر أجزاء النص محل الدراسة أو نحس بتفاوت صوره الكلية بل خرجت هذه المرثيه كل صورة فيها مرتبطة إرتباطاً متلاحماً مع غيرها مما جعلها تتسم بالقوة وجودة السبك ولم لا وهى قد خرجت من بين حنايا فؤاد هده الحزن المسكون الذى يعتصر نفسه .

الأفكار والمعانى :-

حين ننعم النظر متأملين فى هذه المرثية التي جادت بها قريحة الشاعر حسن جاد وخياله الوثاب نلمس بوضوح الميسم الذى صبغت به أو الإطار التى دارت حوله تحت رؤية واحدة أجلت مشاعر النفس وما تكنه من حزن عميق وأسى قاتل .

وقد أدلى بعض النقاد بدلوه فى توضيح قيمة وأهمية وضوح المعنى وجودته وسلامه الفكرة وبعدها عن الغموض والإشكال حين قال : " اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنه عليه كما يعرض

لبعض الأجسام من العور والشلل وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظ كالذى يعرض لبعض الأجسام من المرض بمرض الأرواح ..... فإن اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه .... " (٢٩)

فقيمة الأفكار والمعانى كبيرة ولابد للقارئ أن يتمكن من " التكيف الفكرى والشعورى للموضوع ، وما يستتبع ذلك من لمسات فكرية أو لمسات شعورية أو لمسات فكرية شعورية تظهر أثارها فى العمل الأدبى " (٣٠)

ولعلنى لا أعدو الصواب إن قلت بأن تجربة رثاء الأبناء من أصدق التجارب على الإطلاق ، هذا الصدق فى التجربة جعل الأفكار تتناسب مع موضوع القصيدة مما وفر لها سمة الوحدة الفكرية التى تجمع شتات الأفكار بحبل وثيق ، بدليل أن هذه الأبيات محل الدراسة خرجت من بين حنايا الشاعر فكرة واحدة غير متناقضة كل فكرة تسلم لسابقتها فى تسلسل بديع .

ومما يجب التنبيه إليه أن أفكار هذه القصيدة سارت فى إطار الحزن والأسى والحسرة مما ضمن لها خصوصية الفكرة وتوحد المعانى ومرد ذلك إلى أن " الشاعر الذى يرثى ابنه لا يخضع إلا لمشاعر الحزن والألم وتكون أحاسيسه وجوارحه موجهه نحو المأساه التى يعيشها ..... وقصيدة رثاء الأبناء قد حققت وحدة الأحاسيس ووحدة التعبير ووحدة الأثر (٣١) الذى استطاع الشاعر من خلاله أن ينفس عن همه وآلامه الذاتية وأحزان قلبه الموجع وبالرجوع إلى المضمون الفكرى السابق للنص الذى تناولته الدراسة بالعرض والتحليل نجد أثر ذلك يتجلى بوضوح .

---

(٢٩) العمدة لابن رشيق ١٢٤/١ محمد محي الدين عبد الحميد بيروت ط٥ ١٩٨١.

(٣٠) قضايا النقد الأدبي الحديث ص٥٧ د/ السعدي فرهود ط١ ١٩٦٨ بتصرف.

(٣١) مجلة الهلال ص٧٨ مقال للدكتور محمد العزب عن الوحدة العضوية للقصيدة حوار حول مضمونها النقدي نوفمبر ١٩٧٩.

وتعقيباً على العرض السابق للبعد الفكرى للمرثيه يمكن القول بأن معانى النص جاءت متسقة اتساقاً يلوح فى الأفق حيث رأينا كيف تجلت مقدرة الشاعر على أن يصيغ أفكاره ومعانيه صياغة فنية آسرة تأزرت مع الموضوع وذلك يعكس شدة التلاصق بين الموضوع وهو (رثاء الابن) والأفكار المعبرة (الأسى – الحزن – الحسرة – الشكوى – استجارته بالصبر .....) إذ إن الشاعر لم يتطرق إلى ما يقوض موضوعه فكل بيت كان يسلم إلى ما يليه مما جعلنا نقر بسيطرة الوحدة الفكرية على هذا النسق الشعرى .

كما أن خلو هذه المرثية الباكية من المقدمات المعهودة وراح يبدأها من أول بيت بالرثاء هاجماً على موضوعه

ودعت فيك صفاء العيش ياولدى باطول همى وياحزنى وياكمدى

إنما يأتى إنعكاساً لسيطرة الحزن والجذع وعظم المصيبة على الشاعر ، ينضاف إلى ذلك أن هذه القصيدة من (الشعر الذاتى الذى يعبر به الشاعر عن انفعالات أو عواطف ذاتيه خاصة به ، أو عن مشاعره نحو أحداث مرت به وانفعل بها كالتعبير عن عاطفة حب حقيقى أو حزن حقيقى أو سعادة أو ألم حقيقيين فى أى موقف ، فإن الملحوظ فى قصائد هذا النوع من الشعر أنها غالباً ما تخلو من المقدمات بل ومن المطالع بحيث يدخل الشعر فى موضوع القصيدة من أولها [٣٢] ولو فعل الشاعر خلاف ذلك لفقدت القصيدة قيمة فنيه عالية ألا وهى روعه التأثير فى النفوس .

وكما جاءت أفكار القصيدة مترابطة مع بعضها البعض كذلك فإن معانيها تتسم بالوضوح كاشفة عن الشجن والألم الذى يعتصر قلب الشاعر والبوح عن خلجات نفسه الملتاعه وحين نتأمل هذه اللوحه ندرك أثر ذلك حين يقول :

---

(٣٢) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ص٣٩ د/عبد الحليم حفني الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧.

محمد يا أعـــــــــز اسم أردده كأنه اللحن فى سمعى وفى خلدى
ياقره العين ياروحى ويـــا عمرى ويا امتدادى وياذكرى ويامددى
ويا وحيدى ويا ذخرى ويـــــا أملى مصيبتى فيك لم تنزل على أحد
إذا استجرت مجير الصبر فيك أبى وإن بحثت عن السلوان لم أجـــد
وكيف يسعفنى صبر ألوذ بـــــه ولوعه الخطب فوق الصبر والجلد
لم أنس ساعه عاينت المنون وقد فاضت دموعك حتى مزقت كبدى
إذ تستجير بأنات مهدجـــــــة على لسان عن الإفصاح منعـــقد

فانظر كيف جاءت المعانى واضحه ومتجاوبة مع أصداء نفس حزينة وآلام روح باكية تنبض بالحزن العميق والأسى القاتل ، إنه يرثى قطعه من نفسه ، وخرجت المعانى فى صورة واضحه القسمات لشاعر انفطر فؤاده وتحرق كبده مرسلاً سعير زفراته بوضوح تام دون أدنى تكلف أو إعمال فكر فى طلاقه تعبيرية آسره ، ولم لا وهو من الشعراء المطبوعين الذن يأتى شعرهم مغلفاً بمسحة السهولة والبساطة .

كما يلاحظ استقصاء الشاعر للمعانى والأفكار والعمل على ترديدها فى أكثر من موضع فى ثنايا القصيدة " فالتكرار ظاهرة من الظواهر القديمة فى التراث العربى وما يزال التكرار من الوسائل الأدبية البارزة فى شعرنا الحديث ، ولقد ازداد أهمية وعمقاً عن ذى قبل واصبح تكنيكاً فنياً يلجأ إليه الكثير من الشعراء فى العصر الحديث " (٣٣)

---

(٣٣) شعر عمر أبو ريشة قراءة في الأسلوب ص٢١٤ ،٢١٥ مرجع سابق.

ولعل تكرار الشاعر الدكتور للمعانى والأفكار فى مرثيته إنما يكمن فى احساسه الداخلى الغائر ومشاعره وعواطفه المتلاطمة التى تشك فى كل موطن أنها لم تستقص المعنى وتبرزه فى المره الأولى، فترجع ثانية إلى ترديده ويؤكد ذلك ابن رشيق فى عمدته حين يقول " وأول ما تكرر فيه التكرار باب الرثاء لمكان [٣٤] ومن نماذج ذلك قوله :

وكيف أحيا بلا ظـــــل ولا عضد وكنت ظلى فى الدنيا ومعتضدى
وكيف أسلك درباً قد فقدت به رفيق دربى ومعوانى ومعتـــمدى
كنت الرجاء الذى أحيا به ولـــه فحين خاب رجائى خاننى جلـــدى

ثم تراه يقول مره أخرى ياقره العين ، ياروحى ياعمرى ، ويامتدادى وياذكرى ويامددى ، وياوحيدى ويازخرى ويأملى .

والحق الذى لا مريه فيه أن تكرارا الشاعر لمعانيه بمثل هذه الصورة الملفتة فى المرثية ليؤكد أن أمراً ما يريد أن يستقصيه ويعكف على ابرازه واظهاره ولا أعظم من رثاء الابن ليكون (العنصر المكرر والحاحه على فكر الشاعر أو شعوره ، ومن ثم فهو لا يفتأ ينبثق فى أفق رؤياه من لحظة لأخرى) [٣٥]

وبذلك يمكن القول أن قصيده رثاء الابن جاءت متسمه بالتسلسل والترابط الفكرى الذى يدركه المتلقى ناهيك عن تركيزها على البساطة فى العرض للمعانى حيث أعطانا الشاعر صورة صادقة من ذوب نفسه وخلجات وجدانه .

---

(٣٤) العمدة لابن رشيق ج٢ ينظر صفحات ٧٣/٧٦ ففيها تفصيل رائع لهذه القضية .
(٣٥) بناء القصيدة العربية الحديثة د/ على عشري زايد ص٦٠ مرجع سابق

الموسيقى الشعرية :

عندما يذكر مصطلح الموسيقى الشعرية يتشوق المتلقى إلى النشوى العاطفية والمتعة العقلية والأريحية القلبية والثمرة الدنية التى يقطفها من بيت شعرى أو سطر نثرى متناسق الفواصل والنهايات .(٣٦)

وقد أولاها النقاد اهتماماً بالغاً حتى وصل الأمر إلى أن بعض المذاهب الأدبيه ربطت بينها وبين الشعر برباط وثيق .

وتناول الأثر الموسيقى فى الشعر إنما يتم عبر اتجاهين :-

الاتجاه الأول : يتجسد فى الموسيقى الخارجية وتتبدى ملامحه في الوزن هذا الوزن الذى يمد عنصر اللغة الشعرية فى القصيدة بكثير من الخصوصية عن سائر الأنواع الأدبية وينضاف إلى الوزن قيمة القافية التى تعد دعامة من دعامات الموسيقى .

الاتجاه الثانى: ويتمثل فى الموسيقى الداخلية ويعول فيه على الإهتمام بالجانب اللفظى بما تحتوية عليه القصيدة من ألفاظ وتراكيب وكيفيه تناسبها مع موضوع القصيد وإلى أى مدى تأتى التجربة الإيقاعيه متجاوبة مع طبيعة التجربة الشعورية ، وبالتطبيق على النص الذى بين أيدينا نجد أن الشاعر الدكتور قد اختار لقصيدته بحر البسيط الذى تتألف أوزانه من :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

وقد علل أستاذنا الدكتور / صابر عبد الدايم التسمية لهذا البحر بأن طبيعته تتفق مع الشجن والتذكر والحنين وهو يكثر فى الشعر الفصيح والشعبى ، بل يجئ فى مقدمه البحور التى يستعملها الشعراء ، ونلاحظ بصفة عامة كثرة استعماله فى الشعر العربى بمصر ، وقد تنبه لهذا أحمد أمين فى كتابه النقد الأدبى فقال أكثر

---

(٣٦) حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق ج١ ص٦١٤ ع٢٨ ٢٠٠٨.

الأغانى البلدية المصرية من بحر البسيط [٣٧]

وهذا الوزن يتلاءم مع جو الرثاء والحزن الشديد الذى ألم بالشاعر فى فقد وحيده يضاف إلى ذلك أنه اطول البحور وأكثرها حروفاً ففيه اتساع لإطلاق الآهات وتصعيد الزفرات والتنفيس عما يستكن فى سراديب نفس الشاعر من حزن واكتئاب ولوعه واضطراب ، ولذلك تجد الشاعر يطلق زفراته الشعرية بطلاقة تعبيرية موفقه نتيجه انبساط بحر البسيط بأوتاده وأسبابه الخفيفة التى تساعد الشاعر على القيام بمهمته الشعرية وبالتأمل الفاحص للنص نجد أثر ذلك جلياً فمثلاً قوله :

ودعت فيك صفاء العيش ياولـــدى ... ياطول همى وياحزنى وياكمدى
لم يبق بعدك معنى للحياه ولـــم ... يعد بها أمل أحيا بـــــه لغد
من شاقه المال والجاه العريض فقد ... عزفت عن جاهها أو مالها اللـــبد
وما انتفاعى بالدنيا وليس بـــها ... من كان عـــزى وأمالى ومرتغد
كما ادخرت للأيـــــام فى كبرى ... لكنه القدر المحتوم لم يـــرد

وهكذا .....

ومن خلال ما سبق يتجلى الدور الفاعل لقيمه الموسيقى الشعرية " الوزن وايقاعه " وكيف أنها جاءت طيعه لطبيعه التجربة من اجل تهيئة المتلقى واحساسة بهذا الأثر الفنى مما يضمن للعمل الشعر وصاحبه البقاء والخلود .

كما لا يخفى أثر تصريع الشاعر لمطلع قصيدته ، (فالبيت المصرع هو ما غيرت عروضه للإلحاق بضربه بزياده أو نقصان ، وإنما فعلوا ذلك فى مفتتح القصائد ليحسن التناسق " [٣٨] حيث أكسب مطلع القصيدة رفعـــة وجمـــالاً

---

(٣٧) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور ص ١١١ د / صابر عبد الدايم مكتبة الرشد بالسعودية ط١ ٢٠٠٨.

(٣٨) أهدى سبيل إلى علمي الخليل ص١٠٨ محمود مصطفى ط صبيح القاهرة ١٩٨١.

ومنحها نغماً مؤثراً وايقاعاً رنانا يلفت الأنظار ويملك على السامع أقطار نفسه وكأن هذا التصريع بمثابة التهيئة لنفوس المتلقين لما سيأتى من معان وأفكار .

ودعت فيك صفاء العيش ياولدى ياطول همى وياحزنى وياكمدى

وبذلك يكون التصريع شبيهاً (بالمقدمة الموسيقية الخفيفة القصيرة التى تلهب احساسنا) (٣٩)

وكما تفنن الشاعر حسن جاد في حسن توظيفة للتصريع في مرثيته كذلك قد وفق في استخدامه لمجيء موسيقى القصيدة على روي حرف الدال ومعلوم أن حرف الدال بالأخص من الحروف التي تكثر في قافية قصائد رثاء الأبناء في الشعر العربي مثلها في ذلك كالراء التي من أكثر الحرف دوراناً في قصائد الرثاء بعامة .(٤٠)

على حين قد تجلت مقدرة الشاعر في اتيانه لحرف الدال روياً محركاً بحركة الكثرة التي ولدت ياءً .

..... يا طول همي ويا حزني ويا كمدي

هذه الياء تشير إلى حالة الانكسار والضعف الذي اعترى الشاعر حين ألمت به هذه المصيبة ، ينضاف إلى ذلك أن هذه الياء تعطي الشاعر ايضاً فرصة حقيقية للكشف عن آلامه وآهاته المكبوته في حنايا ذاته التي لطمها القدر في أعز ما تملك .

---

(٣٩) الشعراء وإنشاد الشعر ص١٣٤ علي الجندي دار المعارف القاهرة سنة ١٩٦٩ .

(٤٠) رثاء الأبناء في الشعر العربي ص١٩٧ وما بعدها د / مخيمر صالح مرجع سابق .

أما عن الموسيقى الداخلية المستخدمة في النص فقد تجلت من خلال (اتساق ظلال الألفاظ والعبارات مع الايقاع وتناسقها جميعاً مع الجو الشعري للقصيدة) [٤١] .

إذ لابد أن يحدث نوعاًمن التمازج بين الموسيقى بنوعيها الداخلي والخارجي وقد أولى الشاعر ذلك إهتماماً بارزاً في تضاعيف مرثيته حيث وفق في صياغة حروفه وكلماته موزعاً إياها توزيعاً فنياً دقيقاً وقد تمخض عن ذلك تلكم الموسيقى الآسرة التي جاءت متوائمة مع الأسر الموسيقي الخارجي .
وبالنظرة المتأملة في المعجم الشعري لدى الشاعر نجد أنه جاء مفعما بألفاظ وأساليب تحمل إيقاعاً صوتياً يكشف عن الجزع والحزن المسيطر على نفس الشاعر ناهيك عما حفلت به المرثية من كثرة المدات التي زادت في جمال الايقاع من مثل : (أمل أحيا به ، عزفت عن جاهها أو مالها ، واحسرتاه ، غالت شبابك نكباء المنون ، يا ويحها ، لهفان لهفة مشتاق ، ما غالني ، لهفان محتضناً ، .....) وغير خاف أيضاً مواضع اللين في الكلمات والتي تظهر آثاراً لسعير متأجج في صدر الشاعر من مثل : (يا ولدي ،همي ، حزني ، كمدي ، كان عزي ، آمالي ، ترحم فؤادي ، على كبدي ، فهوى ، رفيق دربي ، معواني ، رجائي ، جلدي ، يا عيني ، يا وحيدى ، يا املي) .
وكذلك في أغلب أبيات النص محل الدراسة مما وفر لها نوعاً من الحس الموسيقي الداخلي الذي يحسه المتلقي ولا يستطيع التعبير عنه وهذه دلالة من دلالات التعبير الفني الذي يمتلكه الشاعر .

---

(٤١) كتب وشخصيات سيد قطب ص ٤٧ ط٢ دار الشروق ١٩٨١.

الخاتمه :-

وبعد هذا الانسياح المتامل في نص الشاعر الدكتور حسن جاد والذي سلطت الأضواء على بعض هذا النص نظراً لطوله الغير معهود في شعرنا العربي والذي أبكانا معه بحق إزاء رثائه لوحيده محمد هذه المرثية التي استطاعت أن تؤكد مدى ما تحويه في طياتها من ثراء فني عميق وكذلك ثراء عاطفي استقطب مشاعر المتلقين ، والنص بهذه الشكلية الرائدة يقف في طليعة موضوعات الشاعر ومن خلال سبري لأغوار الأبيات محل الدراسة من النص يمكنني القول:

- حسن جاد شاعر ملء السمع والبصر وشاعرية فذة صنعها الحرمان ونسيها الخلان بدليل أن ديوان الرجل فيما أعلم لا يزال مخطوطاً على حين أن كثيرين غيره ممن يتملقون قول الشاعر تنشر أعمالهم في أنيق الطبعات والشكر موصول للأستاذ الدكتور / صابر عبد الدايم يونس عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق لتفضله على شاعرية هذا الرجل ونشره لمختارات من شعره مع دراسته الجادة عن هذه الشاعرية .

- **قصيدة الشاعر الدكتور طالت بصورة غير مألوفة في شعرنا العربي الحديث إذ راحت تقارب المائة بيت ، مما عكس حالة الوهج الفني للقوافي النادبة التي تسيطر عليه ما جعلني اقتطع جزءاً منه للدراسة والتحليل .**
- **لنبوغه وتفوق شاعريته استحق عميد الأدب العربي في المهرجان الذي أقيم في إبريل ١٩٧٨ هذا المهرجان الذي ضم شعراء الجمهورية وشواعرها ، ورفضه لهذا اللقب لأنه رأى نفسه دون هذا التنصيب أو الأهلية له .**
- **تجلت القيمة الفنية للنص من حيث كونه معين ثر من روائع رثاء الأبناء في شعرنا العربي الحديث بما جسدته من قيم لأصالة اللغة الشعرية ، حيث يبرز في عالم النص براعة اللغة وجذالة الأسلوب وبراعة التصوير وموسيقاه القوية الفخمة ....**
- **ناهيك عما حفل به النص أيضاً من حسن التوظيف للأدوات الفنية والجمالية التي حلق في أفقها النص من مثل التشكيل اللغوي والصور والأخيلة والأفكار والمعاني ..... إلخ .**

- **نموذج قصيدة رثاء الأبناء نموذج خاص فصاحبه يمتلك رؤية متميزة تجعله يتفرد عن مشاعر غيره من الشعراء بما يمتلكه من أحاسيس ومشاعر وبواعث نفسية صهرها قوة الاحساس وصدق الشعور .**

المصادر والمراجع :-

- الأدب الاسلامي بين النظرية والتطبيق ج٣ د/ على صبح ١٩٩٨ .
- الأسس الجمالية في النقد العربي د/عز الدين إسماعيل دار الفكر العربي ١٩٥٥.
- الأسلوب أحمد الشايب .
- أهدى سبيل إلى علمي الخليل محمود مصطفى ط صبيح القاهرة ١٩٨١.
- تاريخ الأدب العربي في العصر الأموي د/محمد خفاجي الكليات الأزهرية ١٩٧٥م .
- الجارم في ضمير التاريخ د/ أحمد على الجارم ١٩٩٤.
- حلية الطراز ديوان عائشة التيمورية ط قصور الثقافة ٢٠٠٤ .
- حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق ع ٢٨ ج١ ٢٠٠٨.
- ديوان ابن الرومي تحقيق د/ حسين نصار ط دار الكتب .
- ديوان بشار بن برد ج١ الشيخ الطاهر بن عاشور الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٦ .
- ديوان الصنوبري تحقيق د /احسان عباس بيروت دار الثقافة ١٩٧٠.
- ديوان الهزليين القسم الأول الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٥.

- رثاء الأبناء في الشعر العربي د/مخيمر صالح المنار ، الأردن .
- الرثاء د / شوقي ضيف دار المعارف ط٤ .
- شرح ديوان جرير ، محمد إسماعيل الصاوي بيروت لبنان .
- الشعراء وإنشاد الشعر على الجندي دار المعارف ١٩٦٩.
- شعر عمر أبو ريشة قراءة في الأسلوب محمود شفيق لاشين كتابات نقدية ٢٠٠٩ .
- الصورة الأدبية تاريخ ونقد د/ على صبح ط الحلبي القاهرة د/ت .
- الصورة الشعرية عند جماعة أبولو ، إبراهيم عطا يوسف دار العلوم ١٩٨٤.
- العقد الفريد ج٢ محمد ابن عبد ربه الأندلسي بيروت لبنان ١٩٨١.
- العمدة لابن رشيق تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الجيل بيروت ط٥ ١٩٨١ .
- عن بناء القصيدة العربية الحديثة د/ على عشري زايد دار العلوم ط١ ١٩٧٨.
- عن اللغة والأدب والنقد رؤية تاريخية ورؤية فنية د/ محمد أحمد العزب دار المعارف ط١ ١٩٨٠ .

- في النص الأدبي العباسي دراسة تحليلية نقدية د/ محمد حسين عبد الحليم ط١ ١٩٩٠ دار السعادة .
- قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة منشورات مكتبة النهضة ط٢ بغداد ١٩٦٥ .
- قضايا النقد الأدبي الحديث د / محمد السعدي فرهود ط١ ١٩٦٨ .
- كتب وشخصيات سيد قطب دار الشروق ط٢ ١٩٨١.
- مجلة الهلال نوفمبر ١٩٧٩ .
- مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية د / عبد الحليم حفني الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨م .
- مقدمة ابن خلدون مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٢هـ .
- موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور د / صابر عبد الدايم مكتبة الرشد السعودية ط١ ٢٠٠٨ .
- من أعلام الأدب العربي المعاصر الشاعر الدكتور / حسن جاد دراسة ومختارات شعرية د/ حسين علي محمد ، أ.د/ صابر عبد الدايم يونس ، أصوات معاصرة س٢٩ ع ٢٠٩ مايو ٢٠٠٨ .
- النابغة الذبياني د / عمر الدسوقي ط ١٩٥٩ القاهرة .

- النقد التطبيقي والموازنات محمد الصادق عفيفي الخانجي القاهرة ١٩٧٨

.

- تمت بحمد الله -